الخطبة الرابعة والستون

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: 4/ 19]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، الحمد لله فاطر السموات والأرض. وصلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 66/ 6]، لماذا جاءت هذه الآية في هذه السورة التي حكت مشكلة أسرية بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين أزواجه؟ هذه الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 66/ 6] جاءت بعد عدة مشاهد:

1. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ [التحريم: 66/ 3]، السر بين الزوج والزوجة يجب أن يُصان، العلاقة الزوجية علاقة مقدسة يجب أن تحترم ولا تكن مضغة بأفواه الناس، ولا يجوز بحال إفشاء سر الزوجة أو الزوج.
2. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ [التحريم: 66/ 3]، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ [التحريم: 66/ 3] أي: فشت هذه الزوجة سر زوجها، وهذه كبيرة يعلمنا ربنا ذلك بجعلها آية تتلى إلى يوم القيامة، والدليل على أنها كبيرة: لأن الكبيرة تستوجب توبة فوق الاستغفار.

3. فقال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: 66/ 4]، يجب التوبة ويجب الإقلاع عن هذه الكبيرة وإلا...

4. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: 66/ 5]، وهذا تهديد ووعيد وزجر، فالخلاف الزوجي يجب أن يُصان، والعلاقة الزوجية علاقة مقدسة يجب أن تُحترم.

جاءت هذه الآية خطاباً للمؤمنين تحذرهم أنفسهم وأهليهم من النار، ويمعن سبحانه وتعالى في وصف النار، ويمعن في وصف ملائكة النار.

أولاً: نقول: الله أعلم، ثانياً: نقول: إن المشاكل الأسرية لا بد أن تكون ولا بد من وجودها، وقد خطّها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لأنها حقيقة ثابتة، وكانت في بيت رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، وهو الذي زكّاه الله تعالى وجعل تزكيته ومدحه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 68/ 4]، ومع هذا الخُلُق العظيم، وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن، لا بد من بعض المشاكل الأسرية، فإذا كان بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يخلو من مشاكل، فكيف ببيتي وبيوتكم؟ ثم جاءت الآية بعد آية الطلاق وجعلت الخطاب له: ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: 66/ 5]، فالطلاق بيد الرجل، وهذا حق إلهي على الرجل أن لا يتنازل عنه، وهو أمر وضعه الله بيدكَ، وحق جعله لكَ، فلا تتخلى عنه، ولا تجعل الطلاق بيد المرأة، كما يفعله بعض الرجال اليوم،ولو أباحة بعض العلماء.

ثم جاءت الآية تحذرنا وأهلينا من النار وكأن الله سبحانه -والله أعلم- وأعوذ بالله من القول على الله بغير علم، وأعوذ بالله من الافتراء على الله ورسوله، يحذرنا من الطلاق عند وقوع الخلافات، وكأن الطلاق وتفكك الأسرة يؤدي إلى الفاحشة التي توجب نار جهنم. وهذا أمر مُشاهد ومعروف. ففي حالة الطلاق قد يَفْجُر الرجل ويبحث عن الفاحشة، وقد تَفْجُر المرأة والعياذ بالله، ويتشرد الأطفال ويصبحوا بلا

رقيب ويضل من يضل ويزيغ من يزيغ إلا من رحم ربي. ولفتة أخرى في قوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ [التحريم: 66/ 6] بأن الرجال أولاً ثم النساء؛ لأن الرجال قوامون على النساء، ثم النساء لأنهن قد يكنَّ سبباً في المشاكل، مع العلم بأنه لا بد من مشكلة من طرفين، وقد قال عليه الصلاة والسلام في رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنه: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته» متفق عليه.

لفتة جميلة هنا: يحذرنا الله تعالى ويعرض علينا مشكلة أسرية، ويبين لنا أمور، لماذا؟ لأن العاقل يفهم النص ويتعامل معه، يحذرنا الله من الطلاق، فالعاقل يفهم أن الطلاق قد يؤدي إلى تفكك العائلة، ويؤدي إلى الفاحشة والرذيلة، والطلاق يهدم الأولاد فكراً وواقعاً ومستقبلاً، ثم قد يؤدي إلى النار. هذا نص وهذا بيان من الله، فالعاقل يفهم هذا النص ويأخذ التدابير والحذر والحيطة حتى لا تقع المشاكل، وإذا وقعت يكون عقلانياً ورحيماً في التعامل معها، ويطرد الشيطان ولا يترك الشيطان يلعب به ويُدخل في نفسه التكبر والغرور والعُجب وحظ النفس، فالطلاق بيده، وهناك حلول كثيرة غير الطلاق، فالعاقل يتعامل مع النص ويفهم أبعاده ومراميه، أما غير العاقل وقد تكون له مسميات كثيرة يعرفها كل الناس، فهذا يتعامل مع الواقع، يترك الأمور على ما هي عليه ولا يحل المشكلات أولاً بأول، ولا يعرف الأسباب والمسببات ثم يوم تقع المشكلات يوقع الطلاق، والعياذ بالله.

إنسان يدخن، فلو قرأ التعليمات وسمع للأطباء وشاهد من يدخل المستشفيات، لعلم أن التدخين نهايته مرض وعذاب وتعب ومقبره. فلو تعامل مع النص المكتوب والتحذير المكتوب وترك التدخين فهذا هو العاقل، ولكن لو بقي مدخناً ووقع المرض، يأخذ العلاج ويقول: أنا واقعي. -يتعامل مع

الواقع- هذا الواقع كان يمكن تفاديه لو تعاملت مع النص، فكلما ارتفع مستوى الذكاء عند الإنسان كان تعامله مع النص والمعلومات أكثر، وكلما انخفض مستواه من الذكاء والحكمة كان اعتماده على الواقع. أنا أعلم أنه يجب علي أن أترك التدخين، وأن أخفف وزني، وأن أعمل تمارين رياضية، ولكن لا أفعلها، حتى تأتي الجلطة وتصلب الشرايين والعياذ بالله، ثم أركض إلى المشفى وإلى الطبيب وأندب حظي وأقول أنا واقعي. وهذه الآية الكريمة: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ [التحريم: 66/ 6] وكأن فيها أن الوقاية بيدك، أي أن عليك المسؤولية الكبرى، فلا تفعل أنت ما قد يؤدي إلى خطأ يودي بحياتك الزوجية إلى الفشل. وقد قال كثير من العلماء أموراً كثيرة تعين الإنسان في حياته الزوجية؛ فمثلاً: كَلِّمْ زوجتك، وعلّمها ما تحبه وترضاه، اجعل حياتك معها في سبيل الله، اربط علاقتك معها بالله، علمها أن تربط علاقتها معك في سبيل الله، احرص على مرضاة وسعادة زوجتك تحرص هي على مرضاتك وسعادتك، لا تكن أنانياً، لا تكن مسرفاً فتعودها على الإسراف والبذخ، عليك بالكلام الجميل، عليك بالمديح الجميل والكلام الطيب، وإياك والانتقاد الذي لا فائدة فيه، هناك آية جميلة جداً، فيها إرشاد عظيم وتوجيه بليغ، يقول تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾ [فصلت: 41/ 6].

ما هي الكلمة الأساسية في هذه الآية

1. أنه إله واحد، نعم لا شك في ذلك وما قامت السموات والأرض إلا من أجل لا إله إلا الله.
2. الأمر بالاستقامة؟ نعم الاستقامة في الأمور كلها على مقتضى الشريعة لقوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود: 11/ 112].
3. الأمر بالاستغفار؟ نعم لأن الاستغفار جالب ومُحَصِّل لكل خير في الدنيا والآخرة، كل الأمور التي مرت أساسية ولكن هناك كلمة هي المحور

في كل هذه الأمور الثلاثة الآنفة الذكر؛ وهي كلمة: (إليه)، أرجع الأمور كلها إلى هذه الكلمة (إليه): التوحيد إليه، والاستقامة إليه، والاستغفار إليه، معاملتك لزوجتك في سبيل الله (إليه)، حبك لها ورعايتك لها في سبيل الله (إليه)، إنفاقك عليها، إطعامك إياها إليه، قال ﷺ:

1. «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»الترمذي.
2. دَلِّلْ زوجتك وارفُق بها في الكلام وإن كانت غاضبة، كان عليه الصلاة والسلام يقول لعائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبى، قالت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى تقولين: لا ورب إبراهيم، قالت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك» رواه مسلم.
3. وقد تغضب الزوجة، فبماذا تقابلها؟ جاءت أم سلمة بصحفة فيها طعام لرسول الله ﷺ وضيوفه، فغارت السيدة عائشة، فأتت فكسرت الصحفة، فجمع الرسول ﷺ بين فلقتي الصحفة وقال: (كلوا، غارت أمكم، مرتين) ثم أمر عائشة بأن تبعث بصحفتها إلى أم سلمة رضي الله عنهن) النسائي.

انظروا إلى تصرف النبي ﷺ لم يقل زوجتي أهانتني ولم تحسب لي حساب، أو أن زوجتي قللت من قيمتي أمام أصحابي، أو أنها تريد أن تظهر نفسها بأنها هي الآمرة الناهية ولا ولا ... وكل ما يمكن للشيطان أن يفتحه من أبواب الشر. بل جمع الفلقتين للصحفة وقال: (غارت أمكم) وانتهى الأمر، ولم يَخْلُق أو يسمح لمشكلة أن تُخلَق. كم من المشاكل يمكن أن تدفن في أرضها إذا لم نشغلها أو نشارك فيها أو نجعل للشيطان مدخلاً إليها؟ قال عليه الصلاة والسلام: «لايفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر» عن أبي هريرة – رواه مسلم.(لا يفرك مؤمن مؤمنة) أي: لا يبغضها لوجود شيء يكرهه فيها، لأن فيها أشياء كثيرة يحبها، مثلاً قد لا تكون جميلة جداً أو طويلة أو أو ... لكنها شريفة، عفيفة، ديّنة، تحافظ على بيتها وأولادها، لسانها دافئ ولطيف، مصلّية، مربّية، تالية للقرآن.

4. إن رسول الله ﷺ أوصى بالنساء وكانت وصيته هذه من آخر ما وصى به وهو على فراش الموت عليه أفضل الصلاة والسلام فقال: «استوصوا بالنساء خيراً» البخاري، أي: أعينوهن وحافظوا عليهن وأسعدوهن وعاونوهن وهكذا، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 4/ 34]، وقال ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك» متفق عليه، وقال ﷺ: «ما من راع يسترعيه الله رعية ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» متفق عليه، وقال ﷺ: «اتقوا النساء فإنهن عوان لكم فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله» مسلم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: 25/ 74].

5. إظهار المحبة لهن والتصريح بذلك فهذا رسول الله يقول لعائشة: «كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع إلا أني لا أُطَلِّقْ» متفق عليه، فقالت عائشة رضي الله عنها: بأبي أنت وأمي لأنت خير من أبي زرع لأم زرع، «وكان رسول الله ﷺ يداعبها ويدللها ويناديها: يا عائش ويخرج هو وإياها ليلاً يتحدث» البخاري.

6. وكان عليه الصلاة والسلام إذا غضبت زوجته يضع يده على كتفها ويقول: «اللهم اغفر ذنبها، وأذهب غيظ قلبها، وأعذها من الفتن» حديث ضعيف علته (بقية بن الوليد) مدلس - السلسلة الضعيفة للألباني رحمه الله تعالى.

7. فكر دائماً في حسنات زوجتك ولا تفكر في سلبياتها. فكل إنسان له سلبيات وإيجابيات، فكر في تقواها وعفتها وشرفها وتربيتها لأولادها، قال عليه الصلاة والسلام: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» مسلم (1467)، خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، لم يقل: الغنية الجميلة الطويلة، قال: الصالحة، لأن الغنى قد لا يدوم والجمال لا يدوم، وأي شيء قد تُذهب الأيام بَهَاءَهَ إلا الصلاح، فالصلاح يبقى نوراً في الوجه ونوراً في

اللسان ويبارك الله فيه، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 2/ 187]، فهل يستغني أحد عن اللباس؟ فكيف يستغني الرجل أو المرأة عن الزواج؟ اللباس يستر العورات وزوجتك لباسك، وأنت لباس لها، فهل يفضح البعض شريك عمره وينزع لباسه؟ أنت الواقي لها وأنت الحامي لها وأنت الساتر لها وهي كذلك لك، فكيف تتكلم عنها بما يشينك ويشينها؟ أين الرجولة؟ أين الشهامة؟ أين الدين؟ أين الحياء؟ استر زوجتك تستر نفسك، احفظ زوجتك تحفظ نفسك، احترم زوجتك تحترم نفسك، لأن الرجل الشهم الكريم الفاضل المتقي لا يفضح نفسه ولا ينزع لباسه. ويذكرنا الله بقوله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 2/ 237]، وإن صار خلاف، وإن صار طلاق، لا تنسَ أنها كانت سترك وغطاءك وأنت سترها وغطاؤها فاحفظ هذا.

8. هناك أمر إلهي وهو قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 4/ 19]، عاشرها بالمعروف، أحسن إليها؛ هي زوجتك وأم أولادك، أسعدها تسعدك، دللها تدللك، إذا أردت أن تسمع كلاماً حلواً أسمعها كلاماً حلواً جميلاً، استشرها في أمورك كما كان رسول الله ﷺ يفعل وقصة أم سلمة رضي الله عنها في العمرة معروفة؛ كيف أنها أشارت عليه أن يخرج ويحلق. وعليك احترامها أمام أهلها وأولادها، ولا تظهر خلافاتك معها أمام أحد، كما عليك احترام أهلها ولا تَذكُرهم إلا بخير فإن هذا يضايقها.

9. والزوجة المحبة تفني نفسها في سبيلك، تركت أهلها وذويها وجاءت إليك، تلبي طلباتك وحاجاتك، ورزقك الله منها الولد فَرَعَتْهم وربتهم. والزوجة المحبة قد تفدي نفسها فداءً ودفاعاً عن زوجها، قيل أن مِلِكاً أراد أن يأكل ولا يحب أن يأكل وحده، فقال لخادمه: انظر لي أحداً يأكل معي، فخرج الخادم ووجد أعرابياً وزوجته فدعاهما للدخول على الملك فدخلا، وجلست الزوجة ناحية وجلس الأعرابي مع الملك ليأكل، وجاء

الخادم بجدي مشوي وضعه أمام الملك والأعرابي، وجيء للمرأة بلحم ورز، وكأن الأعرابي لم يتمالك نفسه، والله أعلم كم مضى عليه من الأيام دون أكل، فمد يده وانتزع الجدي ومزقه ودخل فيه يمنة ويسرة، والملك ينظر متعجباً من فعل الأعرابي، والأعرابي يأكل بنهم، فقال الملك: ما لي أراك تقطعه وتمزقه كأن أمه نطحتك، فردت المرأة تدافع عن زوجها وقالت للملك: ما لي أراك تشفق عليه كأن أمه أرضعتك، فهذه المرأة حبّاً في زوجها دافعت عنه ولم تخف الملك ولا عقوبته. (وعاشروهن بالمعروف) فرض رباني، (واستوصوا بالنساء خيراً) أمر نبوي، (وخيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي).

وإن ساءك منها خلقاً رضيت منها آخر، ادع لها وأسمعها دعاءك، عليك باللمسة الحنونة والكلمة الرقيقة، وأغلق مداخل الشيطان عنك وعنها ولا تنسَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 66/ 6].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين